

الحجاج في بائية إسماعيل بن يسار النسائي

الأستاذة الدكتورة سمر الديوب (*)

ملخص:

ينطلق هذا البحث من فكرة أن أيّ خطاب حجاجي بالضرورة، يسعى إلى تثبيت فكرة، أو تغييرها، أو إيجاد موقف من قضية ما، وهي خيارات تتأسس على خطة حجاجية تتوجه إلى متلقٍ، وتتوسّل الخطاب الحجاجي البرهاني بغية التأثير في المتلقي بلاغيًا.

وتهدف هذه القراءة النصية إلى الكشف عن فاعلية الحجاج في بائية ابن يسار، وتأكيد الوظيفة الحجاجية. ولتحقيق هذه الغاية تنظم الدراسة في ثلاثة محاور:

- الحجاج لغة واصطلاحاً.

- العتبات الحجاجية في البائية.

- ركائز الحجاج لدى ابن يسار.

١- هدف البحث وأسئلته:

ينطلق البحث من فكرة أن النظم الشعري يختزل حجة من زاوية

(*) أستاذة في قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة البعث.

ورد البحث إلى مجلة المجمع بتاريخ ١٢/٧/٢٠١٧م.

وظائفية، ويشير أسئلة، منها: ما الطرق التي يتوسل بها الحجاج في نص شعري منظوم؟ كيف يمكن أن يحاجج الشاعر المتلقي مع أنهما غير مجتمعين في مقام واحد؟ ما نوعية حجج الشاعر؟ وما طبيعتها؟ وهل ترمي إلى الإقناع أو إلى الحمل على الإقناع؟

ويهدف إلى تأكيد الطبيعة الحجاجية للبائية، وإبراز الجوانب الحجاجية فيها، والبحث في علاقة الحجاج بالبلاغة، وفي القوانين التداولية التي تحكم النص بوصفه نصًا إيحائيًا، والكشف عن الآليات المستخدمة من قبل الشاعر المحاجج؛ لتدعيم وجهة نظره، وتفنيده وجهة النظر المضادة.

٣- منهجية البحث:

يُعدّ البحث في ركائز الحجاج وأنواعه عملاً تداوليًا، على علاقة بالمتلقي؛ ذلك لأنه يقوم أساساً على وجود خلاف بين طرفين. وقد تشكلت البائية من عتبتين نصيتين انطوتاً على^(*) علامات نسقية حجاجية توضح العلاقة المتوترة بين الشاعر، والذات الجماعية التي ينتمي إليها من جهة، والعرب من جهة أخرى. وهو أمر من شأنه جعل التداولية الناظم الأساس الذي تقوم عليه هذه القراءة النصية.

٣- الحجاج لغة واصطلاحاً:

يعد الحجاج في أبسط تعريفاته حواراً بين طرفين، يوجّه طرف الخطاب إلى متلقٍ بهدف تعديل رأيه، أو سلوكه، مادته اللغة. ويعود الجذر اللغوي إلى مادة

(*) ورد في البحث هنا، وفي ثلاثة مواضع آخر: انضوتاً على، تنضوي على بمعنى الاحتواء. والصحيح: انطوى على.

في المعجم الوسيط (طوي): انطوى على كذا: اشتمل عليه واحتواه. وفيه (ضوي): انضوى إلى كذا: مال إليه وانضم. ويقال: انضوى تحت لوائه. = [المجلة]

حجج، ويورد ابن منظور في هذه المادة معاني القصد والبرهان والتخاصم^(١).
 ويفرق أبو هلال العسكري بين الحجة والدلالة والبرهان، فالحجة لديه
 الاستقامة في القصد^(٢).

ونظراً لتفاعل الذوات في الخطاب الحجاجي، وما يتضمنه من جدليات
 تسعى إلى البرهنة يُضحى الحجاج مداراً لتوالد الأنساق التي تتسم بأنها منفتحة
 دلاليًا. ولأن الحجاج قائم على طبيعة جدلية يكتسي قيمة ضدية، وبما أنه قائم
 على توالد الأنساق تكتسب هذه الأنساق قيمة استدلالية. وقد أشار حازم
 القرطاجني إلى احتمالات الكلام، وخاصيته^(٣). ويعدُّ القرطاجني أول بلاغي
 نوّه بالقيمة الحجاجية للشعر، ومزج بين بلاغة البديع وبلاغة الخطابة^(٤).

(١) حجّ إلينا فلان؛ أي قَدِم، وحجّه يحُجُّه حجًّا: قصده.. والحجة: الوجه الذي يكون به
 الظفر عند الخصومة، وجمع الحجّة: حُجج وحجاج. والحجة: الدليل والبرهان..
 التحاجّ: التخاصم؛ وحجّه محاجّة وحجاجاً: نازعه الحجّة، والرجل المحجاج هو
 الرجل الجَدِيل. انظر: ابن منظور، لسان العرب، مادة حجج.

(٢) الحجّة: هي الاستقامة في النظر، والمضي فيه على سنن مستقيم من رد الفرع إلى
 الأصل. وهي مأخوذة من الحجّة، وهي الطريق المستقيم. وهذا هو فعله المستدلّ،
 وليس من الدلالة في شيء، وتأثير الحجّة في النفس كتأثير البرهان فيها، وإنما تنفصل
 الحجّة من البرهان؛ لأن الحجّة مشتقة من معنى الاستقامة في القصد: حجّ يحجّ: إذا
 استقام في قصده. انظر: أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، ص ١٦.

(٣) الكلام لدى حازم القرطاجني إما أن يرد على جهة الإضمار والاقتصاص، وإما أن يرد
 على جهة الاحتجاج والاستدلال. انظر: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، ص ٦٢.

(٤) رأى القرطاجني أن التخيل قوام المعاني الشعرية، والإقناع قوام المعاني الخطابية،
 ورأى أن استعمال الإقناع في الأقاويل الشعرية سائغ؛ لأن الغرض من الصناعتين
 واحد، وهو إعمال الحيلة في إلقاء الكلام من النفوس بمحل القبول لتتأثر لمقتضاه.
 فكانت الصناعتان متآخيتين لأجل اتفاق المقصد والغرض منهما. انظر منهاج البلغاء،
 ص ٣٦١. ويعني هذا الكلام أن الغرض من الصناعتين واحد؛ لأن ثمة قصداً حجاجياً
 للشعر يتوسل بالتخيل.

ولم يَخُصِ البديعون القدماء في الأبعاد الحجاجية للصورة، واقتصر عملهم على الملاحظات، والخصومات الشعرية، والشروح. ويمكن أن نعدَّ البيان والتبيين للجاحظ الكتابَ المؤسس لبلاغة الخطاب الإقناعي في التراث العربي^(٥). لكن ما بدأه الجاحظ لم يُطوَّر، وظل الجدل مرتبطاً بعلم الكلام بعيداً عن البلاغة.

ومن المعاني اللغوية للحجاج القصد، ويتفق هو ومعنى الدليل والبرهان الذي يحصل به الظفر عند الخصومة. والحجج هي الطرق التي يسلكها صاحب الحجة بغية إقناع المخاطب، والتأثير فيه بناء على آليات مستعملة في التَّحَاج. ويتعين على ما سبق أن للحجاج علاقة وثيقة بالجدل والتخاصم. وتفترض هذه العملية وجود طرفين، فلا وجود لخطاب خارج دائرة الحجاج^(٦). ولأن الحجة تبني على تسويغات، وأدلة للدفاع عن فكرة ما ترتبط بالحجة، والمنطق والقياس^(٧).

ولكي يكون للحجة التأثير المطلوب يجب أن يكون هنالك بصر بالحجة، فُتُلْتَقَطُ المناسبة بين الحجة وسياق الاحتجاج في صورتها المثلى، حتى يسد المتكلم الطرق على السامع^(٨) ثم تُرتَّب الحجج، فتوضع كل حجة في مكانها

(٥) البيان والتبيين، ٧٦/١.

(٦) يرى د. رضوان الرقبي أنه لا يوجد حجاج من غير تواصل باللسان، ويكمن معنى الحجة في القصد والظفر والغلبة على الخصم، ويقوم الحجاج على أساس التخاطب بين المتكلم والمستمع اللذين يفترض فيهما أن يتحاجا في أمر يستلزم دليلاً، أو حجة له، أو عليه. انظر: الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، ص ٧١.

(٧) يرى د. حمادي صمود أن أحد الطرفين يحاول أن يؤثر في الطرف المقابل جنساً من التأثير، يوجه به فعله، أو يثبت لديه اعتقاداً، أو يميله عنه، أو يصنعه له صنفاً. مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، ص ١٢.

(٨) يقول الجاحظ: جماع البلاغة البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة. البيان والتبيين، ٨٨/١.

المناسب، فيبدأ المحاجج بالمقدمات التي تعتمد على الاستمالة والتأثير، فالخبر، فالخاتمة التي تثير عواطف المتلقي وانفعالاته، منتقياً الألفاظ الدالة والمناسبة، ومعتمداً على الاستدلال؛ أي إيراد الدليل. ويعد إيراد الدليل أوسع من الحجاج، وهو ينطلق من المقدمات إلى النتائج بعلاقات منطقية^(٩).

يتضح مما سبق أن الكلام كله حجاجي بالضرورة؛ لأنه يهدف إلى تغيير فعل المتلقي، أو آرائه وقناعاته. وترى (أموسسي) Amossy أن ثمة مقصداً حجاجياً صريحاً ومباشراً، وأن ثمة بعداً حجاجياً مضمراً غير مباشر. فالمقصد الحجاجي (Visée argumentative) يميز معظم الخطابات في حين أن البعد الحجاجي (Dimension argumentative) ملازم لخطابات متعددة جداً. ومن أمثلة النوع الأول المرافعة، فهدفها الأساس الإقناع ببراءة المتهم، أو تقديم ظروف مخففة تخفض مدة سجنه. ومن أمثلة النوع الثاني الوصف في مقال صحفي، أو في عمل روائي، فغالباً ما يبدو مجرد محاولة لتصوير جزء من الواقع تصويراً حسياً بصرياً، ومع ذلك فهو أحب صاحبه أو أبقى يضفي على موضوعه طابعاً ومعنى خاصين^(١٠).

ويتضمن الحجاج إشارة ثقافية معرفية؛ لأنه ينطوي على أفكار فلسفية

(٩) عد السكاكي الاستدلال في البلاغة العربية حجة، ودلالة عقلية بيانية قائلاً: «وإذا قد تحقق أن علمي المعاني والبيان معرفة خواص الكلام، ومعرفة صياغات المعاني؛ ليتوصل بها إلى توفية مقامات الكلام حقها، بحسب ما يعني به قوة ذكائك، وعندك علم أن مقام الاستدلال بالنسبة إلى سائر مقامات الكلام جزء واحد من جملتها، وشعبة فريدة من دوحتها - علمت أنه تتبع تراكيب الكلام الاستدلالي، ومعرفة خواصها مما يلزم صاحب المعاني والبيان». مفتاح العلوم، ص ٤٣٢.

(١٠) محمد نجيب العمامي: تحليل الخطاب السردي، هامش ص ٩٠ نقلاً عن: Ruth Amossy, *L'argumentation dans le discours (Discours politique, Littérature d'idées, Fiction)*, Nathan/ Her, Paris, 2000, p.25-26.

قائمة على تساؤلات متعددة، ومن أجل ذلك يُوظَّف التاريخ، وعلم النفس، والاجتماع، والعلوم السياسية بوصفها أنظمة مساعدة^(١١).

وقد حدد (بيرلمان) Perelman الحجاج بوصفه جملة من الأساليب تضطلع في الخطاب بوظيفة تحفز المتلقي على الاقتناع بما تعرضه عليه، أو الزيادة في حجم هذا الاقتناع^(١٢).

وينطوي النص الحجاجي على وحدة قد تكون خفية بفضل الجانب البلاغي في الحجاج، وهو يستفيد من التاريخ، لكن له تاريخه الخاص، وسياسته الخاصة.

أما الحجاجية Argumenta logy فهي المصطلح الذي يفضله (إيريك كراب) Erik C. W. Crabbe، وتعني مجموعة من المقدمات والتصورات والفرضيات التي يؤلف المحاجج منها خططه البرهانية، وبهذه المقدمات يتم التأثير في المعنيين، وللمتلقيين الحق في رفضها إن لم تنسجم مع تصوراتهم^(١٣). ويعد الاستدلال والبرهان والإقناع مصطلحات تمثل ركائز الخطاب الحجاجي. وثمة فرق بين البرهان والحجاج^(١٤) كما أن ثمة فرقاً بين

(١١) Naess, Aren, A Necessary component of Logic: Empirical Argumentation (١١) .Analysis, p.10

(١٢) سامية الدريدي، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، ص ٢١.

(١٣) محمد سالم الطلبة، مفهوم الحجاج عند (بيرلمان) وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ص ١٩٣.

(١٤) يتميز الحجاج بإمكان نقض قضية ويتسم بالإضمار. أما البرهان فيتسم بالظهور، ولا ينقض، ولا يدحض قضية؛ لأن نتيجته موضوعية و يقينية. وتقوم ماهية الحجاج على أنه ينطوي على قدر من الالتباس في الوظيفة لا نظير له في طرق الاستدلال، ولولا تضمن الحجاج هذا الالتباس لما تميزت طريقه من طرق البرهان. فهذا الالتباس هو الفاصل بين الحجاج والبرهان. انظر: طه عبد الرحمن، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ص ٢٣٠.

الحجاج والاستدلال^(١٥)، فالاستدلال (Discursive) عملية ذهنية متصلة يجري الانتقال بها من المقدمات إلى النتائج بالاستناد إلى علاقة منطقية تربط الأولى بالثانية^(١٦).

ويقوم الحجاج على الجدل، وهو يختلف عن البرهان^(١٧)، كما أن ثمة فرقاً بين الإقناع - إقناع الآخرين - والاقتناع؛ إقناع المرء نفسه (Conviction)، وهو يقع في منطقة وسطى بين الاستدلال والإقناع^(١٨).

وفي سياق هذا البعد التنظيري للحجاج وعلاقته بالنسق تبدو بائية إسماعيل ابن يسار ميداناً لحضور الأنساق الحجاجية بوصفها نصّاً سياسياً يصور اعتراض الشاعر على السياسة العامة بصورة النقد الاجتماعي لبعض عادات العرب.

٤- الشاعر والقصيدة:

إسماعيل بن يسار النسائي، وكنيته أبو فائد، قيل: إنه من أسرة من سبي فارس، كانت من موالي بني تيم بن مرة، تيم قريش^(١٩)، وكان من أسرة شاعرة تقطن المدينة في الحجاز^(٢٠).

(١٥) يتصل الحجاج بالعلاقات بين الأقوال في الخطاب، بخلاف الاستدلال الذي يتصل بالعلاقات بين القضايا التي يحكم عليها بالصدق أو الكذب. أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم، فريق البحث في البلاغة والحجاج، ص ٣٦٢.

(١٦) المرجع السابق، ص ٩٩.

(١٧) مدار البرهان إنتاج قول يبلغ به الإنسان اليقين في مجال الضروري، ومدار الجدل امتحان قول لبناء قول تقارب به اليقين في مجال الممكن. المرجع السابق، ص ١١٠.

(١٨) المرجع السابق، فصل الحجاج بين بيرلمان وتيتيكاه، ص ٣٠٠.

(١٩) أبو الفرج الأصفهاني، ٤/٤٠٨.

(٢٠) ذكر أبو اليقظان عن جويرية، قال: ليس بالمدينة شاعر من الموالي إلا وأصله من أذربيجان، ثم عدّ إسماعيل بن يسار. انظر: رواية ابن قتيبة في معجم الشعراء للمربزباني، ص ٣٤٦. ويتساءل د. يوسف حسين بكار: إذا كانت نسا مدينة بخراسان وفارس وكرمان وهمدان فألى أي نسا تنسب هذه الأسرة؟ شعر إسماعيل بن يسار، د. يوسف حسين بكار، ص ١٠ =

وكانت له علاقات بأقطاب النزاع السياسي في العصر الأموي. فقد قيل: إنه انقطع إلى آل الزبير، وحين أفضت الخلافة إلى عبد الملك بن مروان وفد إليه، ومدحه^(٢١). وقد حقد على الأمويين لأسباب كثيرة^(٢٢).

وقد نظم الموالي أنفسهم في صفوف الأحزاب المناهضة للأمويين لما في ذواتهم من ضغينة وغِلٍّ، ولتتشبهوا بحياة الأحرار، ويخرجوا من حياة الرق، فكان انتماءؤهم الحقيقي للنزعة الكسروية؛ لإعادة ما كان لهم من عزٍّ، ومجد، وحضارة انصهرت بالإسلام، فتغنَّوا في أشعارهم بأمجاد ساسان، فشكل شعرهم بداية شعر الشعوبية^(٢٣).

وقد أراد الموالي أن يكون لهم دور في الحياة السياسية. ويرى د. شوقي ضيف أن العرب اندمجوا في الموالي منذ الأيام الأولى في الفتوح، وأن نظام الولاء جعل العرب والموالي بنعمة الإسلام إخواناً^(٢٤) لكن ظهور الدعوات الكثيرة من الموالي لاستعادة أمجادهم السابقة، ومحاربة العرب في الفكر والعادات أمور تثبت أن المساواة لم تتحقق. فقد كان للموالي دور في إضعاف السياسة الأموية؛ لأن منهم مَنْ وقف إلى جانب أعداء الأمويين كما فعل سُديف بن ميمون حين طالب بثورة على الأمويين، وشاركهم الشعراء السود في هذه الحركة.

= ويورد صاحب الأغاني سبب اللقب «النسائي» فقد كان والده يبيع النجد والفرش التي تتخذ للعرائس، أو أنه كان يصنع طعام العرس ويبيعه. انظر الأغاني: ٤/٤٠٨. (٢١) المصدر السابق، ٤/٤٠٨.

(٢٢) انظر: عبد العزيز الدوري، الجذور التاريخية للشعوبية، ص ١٥-٢٣.

(٢٣) قلت ملاحظات القدماء على شعر إسماعيل بن يسار، وأخباره، فقال عنه أبو الفرج: كان مليح الشعر، وأعجب الوليد بن يزيد بشعره الغزلي. انظر: شعره وأخباره، ص ٥٢، ويعدُّ اتصاله بأولي الأمر جزءاً من سياسته الخفية. انظر المقطوعة رقم ١ من شعره.

(٢٤) العصر الإسلامي، ص ٢١٣-٢١٤.

وكان الشعوبيون يتمسكون بترائهم المجوسي، ويتسترون بالإسلام، ولا يكشفون إلا طرفاً من آرائهم المغالية^(٢٥)؛ فممدوح زياد الأعجم ملك متوَّج، وهو أثر فارسي، فلم ينس المُلْك الفارسي في داخله، ورغب في استعادته^(٢٦):

ملكٌ أغرُّ متوَّجٌ ذو نائلٍ للمعتفين يمينه لم تُشَنِّجِ

وتبدو شعوبية إسماعيل بن يسار صورة محولة عن الفخر العربي إلى الفخر بأمجاد الفرس، بدأ قصيدته بالحديث عن دار هند التي خلت، ودرست، وجمال هند، وأثره في نفسه، ثم انتقل إلى الحديث المباشر عن الفخر بالفرس، وهجاء بعض عادات العرب، وتقاليدهم موازنة بعادات الفرس قائلاً^(٢٧):

ما على رسمٍ منزلٍ بالجَنابِ	لو أبانَ الغداةَ رجَعَ الجوابِ ^(٢٨)
غَيَّرَتْهُ الصَّبا وَكُلُّ مُلْتٌ	دائمِ الوَدَقِ مكفهرٍ السحابِ ^(٢٩)
دار هِنْدٍ، وهل زَماني بهنْدٍ	عائِدٌ بالهوى وِصفوِ الجَنابِ
كالذي كان، والصفاءُ مصونٌ	لم تُشَبُّهْ بهجرةٍ واجتنابِ
ذاك منها، إذ أنتَ كالغصنِ غضٌّ	وهي رُوْدٌ كدميةِ المحرابِ ^(٣٠)
غادةٌ تستبي العقولَ بعذبِ	طَيِّبِ الطعمِ، باردِ الأنيابِ
وأثيثٌ من فوقِ لونِ نقيِّ	كياضِ اللجينِ في الزريابِ ^(٣١)

(٢٥) الجذور التاريخية للشعبوية، ص ٢٨.

(٢٦) شعر زياد الأعجم، ٤٩/٢.

(٢٧) شعر إسماعيل بن يسار، ص ٢٨-٢٩.

(٢٨) الجَناب: الفناء، وما قرب من محلة القوم، وهو موضع في السماوة بين العراق والشام، والجَناب: اسم لأكثر من موضع في الحجاز.

(٢٩) أَلْتُ المطر: دام أياماً لا يقلع.

(٣٠) الرُوْد: الشابة الحسنة، الدمية: الصورة.

(٣١) أثيث: شعر أثيث، وهو الكثير العظيم، اللجين: الفضة، الزرياب: الأصفر من كل شيء، والذهب، وماؤه. وهو معرب زراب الفارسية؛ لأن معنى زر: ذهب، وآب: ماء.

فَأَقِلَّ الْمَلَامَ فِيهَا وَأَقْصِرْ لَجَّ قَلْبِي مِنْ لَوْعَةٍ وَاكْتَسَابِ
صَاحٍ أَبْصَرْتَ أَوْ سَمِعْتَ بَرَاعِ رَدَّ فِي الضَّرْعِ مَا قَرَى فِي الْعَلَابِ^(٣٢)؟
انْقَضَتْ شِرَّتِي وَأَقْصَرَ جِهْلِي وَاسْتَرَاخَتْ عَوَاذِلِي مِنْ عَتَابِي^(٣٣)
رَبِّ خَالٍ مَتَوَجِّجٍ لِي وَعَمِّ مَا جِدَّ مَجْتَدِي كَرِيمِ النَّصَابِ^(٣٤)
إِنَّمَا سَمِيَ الْفَوَارِسَ بِالْفَرِّ سِ مِضَاهَاةٍ رِفْعَةٍ الْأَنْسَابِ
فَاتْرِكِي الْفَخْرَ يَا أُمَّامَ عَلَيْنَا وَاتْرِكِي الْجُورَ وَانْطَقِي بِالصَّوَابِ
وَاسْأَلِي، إِنْ جَهَلْتِ عَنَا وَعَنْكُمْ كَيْفَ كُنَّا فِي سَالِفِ الْأَحْقَابِ
إِذْ نَرَبِي بِنَاتِنَا وَتَدَسَّوْ نَ سَفَاهًا بِنَاتِكُمْ فِي التَّرَابِ

٥- العتبات الحجاجية في البائية:

٥-١ - عتبة المرأة الراحلة «بُعْد حجاجي»:

ينضوي الحجاج في هذه القصيدة تحت نوعين: نوع رمزي يحتاج إلى تأويل «بُعْد حجاجي»، ونوع مباشر «مقصد حجاجي». وقد افتتح قصيدته بالحديث عن الطلل الدارس الذي فقد أشكال الحياة كلها، ونسب الطلل إلى هند، وتحدث عن أثرها في نفسه. ويعدُّ الافتتاح وسيلة حجاجية تثير اهتمام المتلقي، وتهيئه لكي يكون في مضمون الفكرة^(٣٥).

(٣٢) قَرَى: جَمَعَ، الْعَلَاب: جَمْعُ عُلْبَةٍ، وَهِيَ إِنَاءٌ يَتَّخَذُ مِنْ جُلُودِ الْإِبِلِ يَحْلَبُ فِيهِ. الْحَلَاب: الْإِنَاءُ الَّذِي يَحْلَبُ فِيهِ أَيْضًا^(*).

(*) شرح الحلاب هنا شرح لما ورد في رواية أخرى. [المجلة]

(٣٣) الشَّرَّة: النِّشَاطُ وَالرَّغْبَةُ، وَشَرَّةُ الشَّبَابِ: حِرْصُهُ وَنِشَاطُهُ.

(٣٤) النَّصَاب: الْأَصْلُ.

(٣٥) يقول محمد الولي: إن الغاية من الافتتاح كسب المخاطب لمصلحة الأطروحة التي ندافع عنها.. وللافتتاح على العموم ثلاث وظائف هي: إثارة انتباه المتلقي، أو القاضي، وتهيئته لأجل الاستفادة، استمالته. انظر: الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، ص ٥٧-٥٨.

وقد وظف الشاعر في افتتاحه اهتمامه بالموضوع والخصم على حد سواء، فقد جابه المتلقي الذي أراد أن يدخل في حجاج معه - العرب بعامة بالرمز أمامة - بالشعر، وهو أمر يكشف عن ثقافته، ومعرفته أن للشعر سلطاناً على الطرف الآخر، وأن له مكانة في المجتمع، فتحدث عن العام بالرمز هند، وأقحم نفسه بوصفه الموضوع أيضاً بطريقة رمزية.

٥-١-١- التوجيه الحجاجي السلبي بالوصف:

إن الصراع بين العرب والفرس موجود، لكن ابن يسار تصرف في اختيار الأحداث بما يخدم هدفه الحجاجي، ويدين العرب، ويُعدّ استحضار الوقائع فعلاً حجاجياً في حد ذاته. فالصفات التي اختارها للدار الدراسة، ولهند الراحلة تجلو وجهة نظره. وثمة بعد حجاجي في تحديد نوع الموقف الذي يحكم به على الموصوف. فقد رفض الواقع رفضاً قاطعاً، ودعا إلى الانكفاء إلى الماضي وأمجاده. وتعني العودة إلى ديار هند التحول إلى الماضي الجميل، فأسقط رمزه على السلطة ليعبر عن رفضه لها.

وقد بدأ حديثه بمقطع وصفي «الأبيات ١-٧» صدره بموصوف ثانوي «دار هند»؛ لأن الذي يهمله ما تحيل عليه هند. ففرّع الموصوف إلى عناصر: الدار البالية، ريح الصبا، المطر الهاطل، الزمن الجميل، ثم أقام علاقة بين الموصوف، والمكان، والزمان، والشخصيات «هو/ هند» بأسلوب بلاغي. فالجزء: دار هند يحيل على الكل «هند/ الفرس» وقد جاء هذا الوصف ذاتياً، أوضح العلاقة الوثيقة بين دار هند وابن يسار، حمل وظائف، منها: الوظيفة العقائدية (الإيديولوجية)؛ إذ يحمل وصف هند الفكر المتعلق بولعه الشديد بماضيه، ورغبته في عودته، كما حمل وظيفة الإيهام بالواقع، فالوصف ليس واقعياً، بل يقدم واقعاً فنياً. ويكشف نهوض الوصف بوظائف عن بعده التداولي، فقد أراد

علاقة تفاعلية مع المتلقي، كما أراد أن تقتنع الذات المتلقية، وتتأثر بما يصف، وهو أمر من شأنه أن يكسب الوصف توجيهاً حجاجياً سلبياً^(٣٦).

لقد هدف من وصف المكان، ووصف هند إلى التأثير في المتلقي، وجعله يعتقد صحة ما يصف، وإلى جعل المتلقي متبنياً وجهة نظر الوصف، فقد بدا ابن يسار منفِعلاً، راعياً في أن يشاركه المتلقي انفعالاته. وقد عزف عن التفصيل في صورة الطلل الدارس «البيتان ١-٢»؛ لأنه مهتم بفكرته الخاصة، ولأن الشعرَ مقامٌ تكثيف، لا تفصيل. فقدم وجهة نظره «Point of view» بالوصف، ورسم مسافة بينه وبين الآخر ذات طبيعتين: فكرية، وعاطفية، فقد تذكر «دار هند وهل زماني بهند»، وقيم «الصفاء مصون»، ورأى «وهي رؤد كدمية المحراب»، وأول «هل زماني بهند عائد بالهوى وصفو الجناب؟» ثم صرّح في العتبة الثانية. وقد أكسبت وجهة نظره، والطبيعة المزدوجة للخطاب «الرمزية والمباشرة» الوصف بعداً حجاجياً. فما يبدو وصفاً عادياً للطلل وهند موظف لخدمة هدفه، ومخاطبة المتلقي، والتأثير فيه.

ويوجّه الوصف في العتبة الأولى توجيهاً حجاجياً، ويعني التوجيه الحجاجي الوجهة التي يحددها ملفوظ ما للملفوظ الذي يليه. فهو يقع بين الحجة والنتيجة المنتظرة^(٣٧)، فقد وجّه ملفوظ «كالذي كان والصفاء مصون» إلى ملفوظ الحضارة الساسانية السابقة الأفضل.

(٣٦) يرى جان ميشيل آدم أن مسألة التوجيه التقويمي «الحجاجي» ملازمة لكل وصف، فالوصف حجة تقود إلى استنتاج. انظر: تحليل الخطاب السردى، محمد نجيب العمامي، هامش ص ١٢٣، نقلاً عن: Jean-Michel Adam, *Les textes : types et prototypes*, op. cit. p.91

(٣٧) انظر: تحليل الخطاب السردى، ص ١٠٠ نقلاً عن: Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, *Dictionnaire d'analyse du discours*, Editions du Seuil, Paris, 2002, p.579

وآمة تفاوت في الفضاء النصي المخصص لوصف كل طرف، فقد وصف الدار، وجمال هند في العتبة الأولى، والفُرس، والعرب في العتبة الثانية، وقد نزع الوصف إلى الاستقصاء، والإفصاح عن رغبات ابن يسار. وتبدو في وصف هند ذائقته الجمالية التي لا تختلف عن ذائفة العرب:

غادة تستبي العقول بعذب وهي رؤد كدمية المحراب
فهو يرسم ملامح المرأة النموذجية لدى العرب، فيقدم صورة لنفسه مزودة بثقافة تراثية عارفة بالأنموذج الجمالي الأثوي.

ونجد في وصف الجمال الأثوي أنه يخاتل السلطة، فيوظف الوصف، والنسق الحجاجي؛ ليدعن له الطرف الآخر «العرب»، لكن هذا الجمال الأثوي فقد صفة الجمال؛ لأن الحضارة العربية أذابت الحضارة الساسانية، وجعلتها عرضة لتغيرات الزمن. فلهند بحمولتها الرمزية موقف من العرب/أمامة، فأدت وظيفة حجاجية. فكان للخطاب الوصفي وظيفة حجاجية، فالوصف حجة ضمنية لدعم فكرة ما؛ ذلك لأن حقل الحجاج هو الخطاب، فلا خطاب من غير حجاج، ولا خطاب من غير بلاغة حجاجية.

٥-٢-١ - بلاغة الحجاج في العتبة الرامزة:

تهدف البلاغة إلى تحقيق الإقناع والتأثير؛ لذا تلتقي الحجاج، وفي البلاغة بُعداً تداوليًّا حجاجيًّا، فللصور البديعية والبيانية بلاغة، وحجاج. وبما أننا توصلنا سابقاً إلى أن الحجاج يخترق الخطابات نجد أن آمة بعداً حجاجيًّا في نص ابن يسار. ويعني الكلام السابق أن الحجاج يرتبط بالسياق من غير أن ينفي ذلك صلته بالبلاغة. فكل جملة متلفظ بها تقدم على أنها حجة^(٣٨).

(٣٨) يرى جان كوهن أن الشعر يظل دوماً في وفاق مع الوظيفة البلاغية، ويقصد بالوظيفة البلاغية الإقناعية، أو الخطابية، فتتغير حال الذي يتلقى الخطاب بواسطة الخطاب نفسه. وفي الشعر =

إن الإثارة أمر مرتبط بالبلاغة، فالبرهنة على صدق دعوى ابن يسار تجعله يستميل المتلقي، ويثير انفعالاته. لكننا نرى أن ثمة معنى أوسع للحجاج الذي يشمل الشعر والنثر. فهو خطاب يسعى إلى تعديل موقف، أو إثبات موقف، أو سلوك لدى المتلقي بالتأثير فيه، سواء أكان ذلك بالخطاب العقلي أم العاطفي^(٣٩).

وتقوم طبيعة النظم الشعري لدى ابن يسار على المزوجة بين التصوير والحجاج، فيقوم التصوير على رسم التفاصيل، والمفارقة بين الطرفين، فتقديم صورة هند المشرقة الغائبة يفترض وجود صورة أمامة المخالفة. والتصوير أداة من أدوات التعبير الحجاجية. ففي التشبيه يكون المشبه به أعلى قيمة، وهو أمر يدعو إلى التأثير في المتلقي:

ذاك منها، إذ أنت كالغصنِ غضُّ وهي رؤدٌ كدمية المحرابِ
وأثيثٌ من فوقٍ لونٍ نقيٍّ كيباض اللجينِ في الزريبِ

= لا يتعلق بتغيير المعتقد بل بتغيير الرؤية. إن هدف الشعر ليس الإقناع لكنه على غرار ما سبق أن دعت البلاغة القديمة التأثير بمعناه الاستعاري: بعث الإحساس.

Jean Cohen, Le Haut langage, P172.

(٣٩) ارتبطت البلاغة بالحجاج. وقد عرفها أرسطو بأنها تكشف عن الطرق الممكنة للإقناع في أي موضوع كان. انظر: محمد العمري، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، ص ٨.

وقد تطورت دراسة البعد الحجاجي في البلاغة والجانب الإقناعي فيها، ورائد هذا التصور بيرلمان Perelman الذي قرر حضور الحجاج في جميع الخطابات الاجتماعية والسياسية والقانونية والإشهارية، وفي جميع أشكال المناقشات العامة؛ أي إنه يغطي مجال الخطاب كله الذي يهدف إلى الإفهام والإقناع مهما كان المتلقي، ومهما كانت الطريقة المتبعة، وطبيعة الموضوع الذي يدور حوله النقاش. انظر: حبيب أعراب، الحجاج والاستدلال الحجاجي - عناصر استقصاء نظري، ص ١١٢.

فيكون المشبه به الدليل في الصورة، فقد سعى ابن يسار المحاجج إلى إثارة انفعالات العرب، فظهر حجاجه بالصورة التشبيهية انفعاليًا، حافظ على الاختلاف بين الطرفين، فلكل منهما وجهة نظر لا يقبل أن تغيرها حجج الطرف المقابل. وحين يصور جمال هند بهذه الطريقة يولّد خيارات في ذهن المتلقي، فيجد نفسه في مواجهة صورة تدركها حواسه، فلا يمكن إنكارها، فجاء التشبيه صريحاً، والحجج ضمنية. فهند التي تسلب العقول ذات قيمة حجاجية وإن لم يقبل المتلقي بها^(٤٠).

وتؤدي الاستعارة وظائف متعددة في عمليات التخاطب، والتأويل، والفهم، فتؤكد المعنى، وتبالغ فيه، وتؤدي وظيفة حجاجية إقناعية، مع أنها تتداخل بالتأثير الوجداني^(٤١).

وقد قسم الجرجاني الاستعارة إلى مفيدة، وغير مفيدة، ويعني ذلك أن ثمة استعارة حجاجية، واستعارة تزيينية.

«دار هند، الصفاء مصون» وردت هاتان الاستعارتان في سياق الحديث عن جمال هند/ الحضارة السابقة، ويرتبط مفهوم القوة الحجاجية بالسياق، ومقاصد الشاعر. فهو يخاطب ديار هند، ويعلي من قيمتها في نفسه، ويجعل الصفاء

(٤٠) ليس الهدف من الحجاج تدقيق بعض الجهات المنطقية التي للقضايا بقدر ما هو توفير للوسائل المفضية إلى إقناع الجمهور، وحملهم على التصديق من خلال التنوع في ضروب التعبير عن الفكرة. وتعد الصور البلاغية ذات قيمة حجاجية وإن لم يقبل المتلقي بها. انظر: أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية منذ أرسطو إلى اليوم، ص ٣٢٢-٣٢٣.

(٤١) المجاز أبلغ من الحقيقة، ويستغل الحجاج طاقات اللغة كلها بثراها. وقد ذكر الجاحظ أن البصر بالحجة، والمعرفة بمواضع الفرصة أن تدع الإفصاح بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاح أوعر طريقة، وربما كان الإضراب عنها صفحاً أبلغ في الدرك، وأحقّ بالظفر. البيان والتبيين: ٦٣/١.

مصوناً. والقول الذي يقع في أعلى درجات السلم الحجاجي هو الدليل الأقوى؛ لذا يمكن أن نعد الأقوال الاستعارية أعلى حججاً من الأقوال العادية^(٤٢).

ويعني وجود القيمة الحجاجية للاستعارة أن الحجاج ليس شيئاً مضافاً إلى اللغة، بل هو في جوهرها.

وقد عدل ابن يسار عن التعبير الصريح، فوظف الاستعارة، وغدت وسيلة مهمة للاستدلال. وقد جعل الزمن الماضي مثاليًا، مفقودًا، وحين خاطب الديار رفع من قيمتها إلى مرتبة الإنسان في الفعل هادفًا إلى إحداث تغيير في الموقفين الفكري، والعاطفي لدى المخاطب = العرب. وحين خاطب دار هند، وجعل الصفاء مصوناً اختار مُعْطَيْن، وجعلهما ينهضان بوظيفة حجاجية؛ ذلك لأن هاتين الصورتين تجلوان وجهة نظره، وموقفه من هند = الحضارة الساسانية، فنجد صفتين متناظرتين، متعارضتين، واختيار إحداهما يكشف رؤية الشاعر الخاصة، فمخاطبة دار هند تعني التقليل من قيمة دار أمامة، والصفاء المصون يعني أنه يفقد الصفاء في دار أمامة. ويحدد البعد الحجاجي موقف ابن يسار، فقوله: «الصفاء مصون» يتجاوز الحزن على الماضي إلى تحديد طبيعة الحياة التي يريدها في المستقبل، فيسلط العقل على الخيال؛ ليحرك مشاعر الطرف الآخر، وانفعالاته^(٤٣).

وتأتي الكناية في الإطار ذاته «طيب الطعم، بارد الأنياب» ففيها معنيان: قريب، وبعيد، وهو يريد المعنى البعيد. فالحياة السابقة بما فيها أجمل،

(٤٢) الاستعارة أدعى من الحقيقة لتحريك همة المستمع إلى الاقتناع، أو الالتزام بقيمتها. طه عبد الرحمن، اللسان والميزان، ص ٣١٢.

(٤٣) يرى عبد القاهر الجرجاني أن الكناية أبلغ من الإفصاح، والتعريض أوقع من التصريح، وأن للاستعارة مزية وفضلاً، والمجاز أبلغ أبدأ من الحقيقة. انظر: دلائل الإعجاز، ص ٥٥-٥٦. ويعني الكلام السابق أن للمخاطب الأهمية في الكلام ذي السياق البلاغي الحجاجي.

وأفضل من وجهة نظره، ولها طعم لا يُنسى، وهذا سبب يدفعه للرجبة في استعادتها، فتتكفى رؤياه نحو الماضي.

وابن يسار مطلع على عادات العرب، يرصدها من وجهة نظره؛ لذا أقام خطته على التدرج في الاحتجاج، فبدأ بالرمز، وانتهى بالمباشرة؛ لأنه على دراية بالشعر، يعرف أن خطته الحجاجية لن يكتب لها النجاح إذا بدأ بالحجاج المباشر التقريري.

٥-٢- عتبة الذات المتمردة «مقصد حجاجي»:

يشعر ابن يسار أن ذاته مقهورة، فيحاول إعلاء صوته الحجاجي أمام الآخر المختلف. فالزمن زمن السلطة العربية، وهذا الزمن السلطوي يفقد خاصية الديمومة من وجهة نظره إذا ما قوبل بثقافة العمل، فيوجد تضاداً بين موقفين: موقف العرب من الحضارة الساسانية، والموقف الحجاجي المعارض للعرب وعاداتهم، يُظهر الرفض، والحركة الضدية تجاه الآخر.

وفي الحجاج المباشر في العتبة الثانية تحضر صورة العرب من قرائن التخاطب، وهي ضمير المفرد المخاطب منفصلاً ومتصلاً وبارزاً ومستتراً «أمامة»، وهي قرينة تسمح بتكوين صورة كَوْنها عن العرب. ويعدُّ هذا البناء لصورة الآخر المختلف المحاور تقنية حجاجية، فلا تُظهر صورة العرب نظرة ابن يسار إلى محاوره (أمامة) فقط، بل تُظهر أن الشاعر صاغها بطريقة تسمح له بتوظيفها حجاجياً. فقد سعى إلى زحزحة الصورة المعروفة عن مخاطبه، والتي يتمسك بها:

فاتركي الفخرِ يا أمأمَ علينا واتركي الجورَ وانظقي بالصوابِ

وحين يبني صورة العرب يبني في الوقت نفسه صورة لذاته، ولمن يمثله؛ لذا أدت هذه الصورة وظيفة حجاجية ولا سيما أن العلاقة بينه وبين

محاوَره علاقة عدااء، فقد أظهر خطابه أنه يمتلك سلطة تسمح له بمخاطبة العرب ومناقشتهم، ثم يعيد تشكيل الصورة السابقة التي يظن أن مخاطبه يحملها عنه، فقد انتقد العربُ الفرسَ، فردّ على ذلك برسم صورتهم، وقد كان واعياً أن لصورة الذات في خطابه دوراً مهمّاً في التأثير في مخاطبه، فرسمها بطريقة تؤدّي وظيفة حجاجية^(٤٤):

واسألِي، إن جهلتِ عنا وعنكم كيف كنا في سالفِ الأحقابِ
إذ نربّي بناتِنَا وتدسّو نَ سفاهاً بنا تكم في الترابِ
وينسب إلى نفسه الصورة الإيجابية المشرقة بطريقتين: رمزية، ومباشرة؛ لتغيير موقف المخاطب منه. وما كان للصورة نجاعة حجاجية لولا المستويان: القصدي والبعدي.

ويؤكد لجوؤه إلى المستويين معاً اقتناعه بصعوبة المهمة، وأن ردّ الفعل سيكون سلبياً، فسارع إلى الكشف عن قصده الحقيقي، وإلى أن يكون له الأثر الكبير في الطرف المقابل.

٥-٢-١ - القياس الناقص:

القياس لدى أرسطو مقدمة كبرى توصل إلى مقدمة صغرى، تؤدّي إلى استنتاج. وقد يكون القياس مضمراً، وفي القياس المضمّر ننتقل من فكرة عامة ليست موضع نقاش؛ لكي نسوّغ فكرة خاصة^(٤٥). فقد انطلق من فكرة

(٤٤) يعيّر إسماعيل بن يسار العرب دسّهم بناتهم في التراب في حين أن شريعة مزدك كانت تبيح الأمهات، والأخوات، والبنات. انظر: أبو حيان التوحّيدي، الإمتاع والمؤانسة، ٩٣-٩٢/١.

(٤٥) أرسطو، فن الخطابة، ص ١٥٤.

وقد عرّف د. بدوي الضمائر بأنها عصب الحجاج في الخطابة، والمقصود بالضمائر الأقيسة المنطقية التي أضمرت بعض مقدماتها. ص ٧.

أن الفوارس أُطلِّقت عليهم تسمية فرس انطلاقاً من الاشتقاق اللغوي؛ ليصل إلى فكرة خاصة، وهي تفوق الفرس على العرب.

ولجأ إلى القياس الناقص، فأضمر بعض المقدمات، ودعا إلى هذا الإضمار أسباب عديدة تتعلق بالتأثير الخطابي. ويكون القياس الناقص على الشكل الآتي:

للحضارة أهلها ← نحن نحمل صفات حضارية ← نحن أهل الحضارة
ويحمل هذا القياس معاني خفية تنحو بعيداً نحو المقارنة، فهو يقيد الطرف الآخر، ويلغي موقفه الحرّ، وحين يفعل ذلك يدفع محاوره إلى الاعتراف له، وجعل وجهة نظره حقيقة لا تناقش، وينجم عنها ضرورة الاعتراف لهم بالسلطة، والطاعة الواجبة^(٤٦).

لقد صرّح حيناً، وأضمر حيناً، ورغب طوراً، وأرهب طوراً. وكلامه كله موجّه نحو نتيجة تُستخلص، ويمكن أن تُستنبط في العتبة الأولى. ويعدّ استخلاص النتيجة أمراً مهمّاً حجاجياً، فيستخلص المتلقي نتيجة لا يشعر أنها فُرِضت عليه قسراً.

ولأنه يعرف أن المتلقي سينكر حججه سارع إلى إثباتها بطريقتين، وإثبات الصورة المقابلة، والأثر النفسي^(٤٧)، وانطلاقاً من فكرة أن أي حجاج يفترض

(٤٦) يرى ديكرود Ducrot وأنسكونبر Anscombe أن المواضيع المشتركة مبادئ عامة تقدّم على أنها مقبولة من مجموعة بشرية ما. انظر: تحليل الخطاب السردي، محمد نجيب العمامي، هامش ص ١٠١، نقلاً عن: Patrick Charaudeau et Dominique Maingueneau, *Dictionnaire d'analyse du discours*, Editions du Seuil, Paris, 2002, p.579

(٤٧) يرى د. محمد العمري أن القياس الخطابي قياس مضمر، يقوم على الاحتمالات. انظر: في بلاغة الخطاب الإقناعي، ص ٧٧.

وجود اختيار ما انتقى ابن يسار من التاريخ ما يوافق هدفه الحجاجي: «كيف كنا في سالف الأحقاب، نربي بناتنا، ربَّ خال متوج لي وعم».

ويعدّ استحضار الواقع فعلاً حجاجياً في حدّ ذاته، فلم يشأ أن يقدم الدليل على ما أراد، بل رسّخ الصورة السلبية لسلوك العرب في ذهن المتلقي باستحضار صورة من أفعالهم. وفي الشاهد التاريخي ينطلق الشاعر من فكرة خاصة، فيقوم الشاهد على علاقة الجزء بالكل، خلاف القياس المضمّر الذي ينطلق من فكرة عامة؛ ليسوّغ فكرة خاصة^(٤٨).

ولكي يحقق غايته بنى صورة، وهدم صورة مقابلة بثائية البناء والهدم.

٥-٢-٢ - ثنائية البناء والهدم:

ليست صورة الذات مقصودة لذاتها، بل بوظيفتها الحجاجية. وقد بنيت الصورة على ثنائية البناء والهدم، فللخطاب الحجاجي خطاب مضاد، ولا يعني الدخول في الجدل عدم اتفاق فقط، بل يعني أن المجادل يمتلك حججاً مضادة^(٤٩).

إن الصفات التي اتسمت بها العرب حملت الشاعر على تنويع أدواته الحجاجية، فرسم صورة الذات الجماعية = الفرس، وقدّم صورة مقززة للآخر، وأثار انفعالات، واعتمد على القياس الناقص، فهزأ من العرب بمقصد حجاجي حيناً، وبعد حجاجي حيناً آخر، وبدا مفرطاً في ثقته بنفسه، وغدا أكثر من ندد للعرب، وأراد التفوق. لكنه وقع في التناقض، فقد عيّر العرب دسّهم بناتهم في التراب، وهي عادة قديمة غير شائعة، متناسياً أن شريعة (مزدك) كانت تبيح الأمهات، والبنات، والأخوات، فبنى هوية

(٤٨) يرى أرسطو أن الشاهد التاريخي الأكثر إثارة للتصديق، فن الخطابة، ص ١٥٥.

(٤٩) محمد طروس، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ص ١٠٨.

جعلت تواصله سلبياً مع المتلقي، فوقع في الخطأ، وهدم الصورة التي بناها عن نفسه في خطابه. فقد تصارعت في خطابه وجهتا نظر: وجهة النظر المتعالية، ووجهة النظر المضادة، وبنى حجاجه في البداية بناء منطقيًا، فهو يحن إلى ديار فارس وأمجادها، لكن هذا الكلام سيكون موضع اعتراض من قبل المتلقي، فعمد إلى مقدمة صغرى؛ لترك الباب مشرّعاً للدفاع:

أنا أحنّ إلى أمجاد فارس ← أستطيع أن أعيدها ← يجب أن أحييها

فالنتيجة الضمنية في العتبة الأولى تدخل في علاقة تضاد بالنتيجة الضمنية في العتبة الثانية، فبدأ بالحنين إلى الحضارة، والرغبة في إعادة أمجادها، وانتهى إلى تفوق الفرس على العرب في بعض العادات، فسقط، ولم تقنع حجته؛ لأنها اعتمدت على إثارة الانفعالات.

إنه يرفض الآخر رفضاً قاطعاً، ويهدف إلى ما هو أبعد من الحجاج، والإقناع، يهدف إلى الإخضاع، فأدار حواراً من طرف واحد افتقد فيه الحجاج الحقيقي أهمّ شروطه.

وقد لجأ إلى التمثيل؛ ليقوي حجته:

صاح أبصرت أو سمعت براع ردّ في الضرع ما قرى في العلاب

الخطاب الحجاجي

الدليل



العرض

استهلال



نتيجة



الخطاب الانفعالي

فهم ← تأثير ← إقناع

فلا أحد يفرط فيما يجني، فكيف يفرط بحضارته. والتمثيل استقراء بلاغي، وحجة تقوم على مشابهة، يراد منها استنتاج نهاية إحداهما بالنظر إلى الأخرى، ويعدّ دعامة من دعائم الحجاج؛ لقيمته التأثيرية، والإقناعية. ويمكن تمثيل المسار الحجاجي في النص بما يأتي:

ويقودنا الكلام السابق إلى الحديث عن إثارة الانفعالات في الخطاب الحجاجي بوصفها أهم ركائز الخطاب.

٦- ركائز الحجاج:

٦-١ - إثارة الانفعالات Pathos:

من ركائز الحجاج الثلاث إثارة الانفعالات في الوجدان والعقل. وقد أثار الشاعر انفعالات لبيّن للعرب الفرق بين الصورتين. ويعدّ رسم صورة الذات، وإثارة انفعالات المخاطب تقنيتين حجاجيتين. لكنه انفعال سلبي نتيجة نقده العرب، وقلب المقدمات.

فالمقدمة الكبرى «إنما سمي الفوارس بالفرس» حقّها أن تأتي قبل المقدمة الصغرى «ربّ خال متوج لي وعم»، فلم يكن همه ترتيب المقدمات، بل انصرف إلى التأثير في المحاور، وإجباره على الاعتراف بالتفوق. فالخاص يغدو لديه عامّاً، وتقود الصورة المنفّرة للعرب إلى نتيجة، وتقوم هذه النتيجة على بناء الصورتين، وستستغلّ لتدعم نتيجة غير مصرّح بها، بل تترك استنتاجها للمخاطب، وهي الطموح السياسي.

وإثارة العواطف - تبعاً لما سبق - ثمرة تفكير عقلي، ونشاط ذهني يظهر في شكل عاطفة^(٥٠)؛ فثمة علاقة بين إثارة الانفعالات والمكوّن العرفاني من جهة، والحجاج من جهة أخرى؛ لأن وراء كل عاطفة معارف، وأحكاماً يتجه إليها الفعل الحجاجي، ويدافع عنها المحاجج حين يرغب في تسويغ عاطفته.

ويتجلى الأثر الانفعالي في أقواله الموجّهة إلى العرب. وثمة ملفوظات

(٥٠) تحدث أرسطو عن وظيفة العاطفة في الحجاج، فقد فضّل القول في تأثير العواطف في العقل. انظر: فن الخطابة، ص ٣٠ وما بعدها. ونستطيع أن نرى بالمقابل أن للعقل دوراً في تحديد العاطفة، وتوجيهها.

خاصة بالسبب في عدائه العرب ذات بنية حجاجية، فقد أذاب العرب حضارته، وحن إليها، ورغب في استعادتها. وهو لا يريد فقط وضع المشكلة موضع نقاش بل يريد بيان الموقف منها، فاستهل خطابه بإثارة المشكلة بطريقة رمزية، ولعب على وتر العواطف، فأثار انفعالات المتلقين بتذكيرهم بما هو موضع شفقة لهم، وتفوق له.

٦-٢- صورة الذات Ethos:

(الإيتوس) من دعائم الحجاج الثلاث، ويعني رسم صورة الذات في الخطاب أن الشاعر يرسمها صراحة وإيحاءً، فخطابه رسم لصورة الذات. وحين يرسم صورة الآخر يرسم صورة الذات بطريقة غير مباشرة. وعلى هذا النحو يقدم الشاعر عامداً، أو غير عامد صورة لنفسه في خطابه^(٥١):

فاتركي الفخر يا أمم علينا واتركي الجور وانظقي بالصواب
تأتي صورة العرب مختزلة في أمامة، وهي رمز أنثوي للعرب جميعاً،
يقابل رمز هند في العتبة الأولى^(٥٢). فساق مراتب حجاجية، موجهة توجيهاً

(٥١) تقول أموسسي (Amossy) في هذا الصدد: «كلّ تكلم يستتبع بناء صورة ذات. ولتحقيق هذا الغرض ليس من الضروري أن يرسم المتكلم صورته (Portrait) ولا أن يفصل القول في خصاله ولا حتى أن يتحدث صراحة عن نفسه. فأسلوبه وكفاءاته اللغوية والموسوعية ومعتقداته الضمنية تكفي لتقدم تمثلاً لشخصيته. وعلى هذا النحو المتكلم، عامداً أو غير عامد، ينجز في خطابه تقديماً لنفسه». الذاتية في الخطاب السردية، محمد نجيب العمامي، هامش ص ١٠٢، نقلاً عن: Ruth Amossy, La notion d'ethos de la rhétorique à l'analyse du discours (Introduction), in *Images de soi dans le discours, la construction de l'ethos*, (sous la direction de Ruth Amossy), Delachaux et Niestlé S.A., Lauzanne (Switzerland) – Paris, 1999, p. 9.

(٥٢) يرى د. طه عبد الرحمن أن الذي يحدد ماهية الحجاج العلاقة المجازية، وليس العلاقة الاستدلالية وحدها، فلا حجاج بغير مجاز. اللسان والميزان، ص ٢٣٢.

كمياً، تقبل التدرج في اتجاه واحد على مقتضى التزايد^(٥٣): لنا نسب، لنا عز، نربي بناتنا. وهي في الوقت نفسه موجهة توجيهاً قصدياً، فيحدد الشاعر المراتب التي تنزل بها الجمل التي تصف الذات. ولتحقيق ذلك يلجأ إلى ما يمكن تسميته حركة الكلمة الحجاجية.

٦-٣- «الاستراتيجيات الخطابية» Logos:

ونقصد بها حركة الكلمة الحجاجية، فقد تُرجم كلمةً كلمةً أخرى من الحقل المعجمي نفسه بعلاقة المجاورة بالمجاز المرسل، وعلاقة المشابهة بالتشبيه والاستعارة^(٥٤) وهي حركة حجاجية تسميها الأسلوبية المعاصرة عدولاً.

دار هندی، وهل زماني بهندی عائدٌ بالهوى وصفو الجَنابِ
لقد نسب الديار إلى هند على سبيل المجاز، فزاحت هذه الكلمة غيرها، واكتسبت طابعاً حجاجياً، وبنيت أمام صورة أمانة بمحمولها السلبی، وتساوقت الكلمة المختارة مع سياق استخدامها^(٥٥).

ومن طرائق عرض الخطاب عرضاً حجاجياً أسلوب القصر «إنما سمي الفوارس بالفرس» ويفيد القصر الإثبات، والتخصيص، فيخصص صفة معينة بموصوف معين. ويأتي القصر هنا في مقامين مختلفين يقتضيان هذا الفرق «الفوارس/ الفرس» فقله: (سُمي الفوارس) يقودنا إلى تصور ومقامين يعلم الطرفان أن الفوارس فرس ذوو نسب، وهي جملة ترد في

(٥٣) المرجع السابق، ص ٢٧٥.

(٥٤) يقول ابن أبي الإصبع: هو أن يقصد المتكلم إلى شيء بالذكر دون غيره مما يسد مسده لأجل نكتة في المذكور، ترجح مجيئه على سواه. بديع القرآن، ص ١١٢.

(٥٥) يرى ديكر أن البعد الحجاجي سابق للبعد الإخباري في القول. فكل قول هو حجاجي بالقوة قبل أن يؤدي دوره الإخباري. فالسمة الحجاجية منغرس في اللغة. انظر فصل التداولية المدمجة لهرمان باريه ضمن كتاب تلوين الخطاب، صابر الحباشة، ص ١٧٩، ١٩٣.

سياق محاورة وجدال، ينكر العرب عليهم أنهم فوارس، فيأتي أسلوب القصر؛ ليعلمهم، فتغدو العبارة ذات قيمة حجاجية، تندرج في سياق حجاجي يتمثل في إنكار المخاطب، وإقناع المتكلم.

وللقصر علاقة وثيقة بالاستدلال؛ إذ يندرج أسلوب القصر في سياق استدلالي بمنزلة حجة تقود إلى نتيجة، يريد المتكلم من المخاطب التسليم بها. وهو أمر يقتضي وجود سياق حوارى تواصلى يهدف إلى الإقناع عن طريق الحجة^(٥٦).

وبأسلوب القصر أعاد بناء صورة الذات؛ لكي تؤدي دوراً حجاجياً إيجابياً، وقلب صفات الخصم؛ لكي يقلب الجانب الحجاجي الإيجابي إلى سلبي. فالصفات الإيجابية لدى العرب تظل موضع شك لديه.

ويعدّ ضمير المتكلم من أجلى علامات الذاتية في الخطاب، فقد أعلم المخاطب - العرب بصيغة أنتِ أمانة - بموضوع الحجاج، وتبنى الموقف، وسعى إلى إقامة الدليل.

ولا يمكن دراسة البنى الأسلوبية منفصلة عن أهدافها الحجاجية. ويعدّ التكرار واحداً من طرائق عرض الخطاب عرضاً حجاجياً؛ لإبراز شدة حضور الفكرة المراد إيصالها، والتأثير بها: «فاتركي.. واتركي، بناتنا.. بناتكم، دار هند.. زماني بهند».

ويضمن التكرار تنامي النص، وانسجامه حجاجياً حين يقيم علاقة حجاجية بين الحجة التي تأتي قبل التكرار، والحجة التي تليه. ويؤدي

(٥٦) يقول أبو البقاء الكفوي: القصر في الاصطلاح: جعل أحد طرفي النسبة في الكلام سواء كانت إسنادية أو غيرها مخصوصاً بالآخر بحيث لا يتجاوزه إما على الإطلاق، أو الإضافة بطرق معهودة. الكليات، ص ٧١٦-٧١٧.

التكرار معنى التوكيد؛ إذ تتوافر في الشاعر شروط الاستعلاء، فيوجه توكيده من زاوية عليا؛ ليكون لحجته قبول دون نقاش.

وقد ورد بعض التكرار في صيغة ثنائيات ضدية: نربي بناتنا وتدسون بناتكم، ولجأ إلى التضاد لغاية حجاجية؛ لتدعيم الفكرة، ولبلوغ غايته الحجاجية.

ومن الكلمات التي لها حركة حجاجية فعل الأمر: «اتركي، انطقي»، ويهدف إلى توجيه المتلقي نحو سلوك معين يخدم هدف الشاعر. ويأتي الاستفهام في هذا السياق حجاجياً أيضاً «هل زماني بهند؟»؛ ذلك لأنه يستلزم تأويل السياق انطلاقاً من قيمته الحجاجية، ويحمل افتراضات ضمنية تجعله حجاجياً، خادماً نتيجة الشاعر.

وأخيراً يقوم السلم الحجاجي على ترتيب الحجج عمودياً، من الحجة الضعيفة إلى القوية في فئة حجاجية واحدة. فكل جملة في السلم الحجاجي دليل على مدلول معين، وكل جملة تعلقه تكون دليلاً أقوى منه:

- ↑ - في الزمن الماضي كان الصفاء مصوناً.
- سمي الفوارس بالفرس مضاهاة رفعة الأنساب.
- ↑ - نربي بناتنا وتدسون سفاهاً بناتكم بالتراب.

٧- خاتمة:

يقوم الحجاج على حجة منطقية للتأثير في الآخرين، وإقناعهم، وهو خطاب تواصلية قائم على الحوار مع الآخر المختلف. ويمكن بناء على ما سبق أن نسجل النتائج الآتية:

- الخطاب الحجاجي البلاغي يجعل الحجاج مؤثراً؛ لأن للمجاز قوة حجاجية كبرى.

- للوسائل الحجاجية وظيفة جمالية تضاف إلى وظيفتها الحجاجية.

- الاعمءاء على الحجاج يؤكء الرغبفة في الانتقال من المفاخرة، والمنافرة إلى الحوار، والمناظرة، والإقناع.
- رسم الشاعر صورة للفُرس أفضل من الحقيقة، فكشف، وانكشف، وأءى حجاجه وظيفة سلبية.
- نوع في أساليب الخطاب، وتءرء من الرمزية إلى المباشرة، فتارة يذكر العرب باسمهم الصريح، وتارة بالرمز أمامة، وتارة يذكر الفرس صراحة، وتارة بالرمز هند.
- لوجهة نظر ابن يسار ووجهة النظر المضاءة وظيفة في بناء الحجاج في القصيدة.
- لم يشأ ابن يسار أن يؤثّر في المحاور فقط، بل أراد حصره في دائرة الاعتراف به.

* * *

المصادر والمراجع

- أرسطو: ١٩٨٦، فن الخطابة، ترجمة د. عبد الرحمن بدوي، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد.
- ابن أبي الإصبع: ١٩٥٧، بءيع القرآن، تحقيق: حنفي محمد شرف، مكتبة نهضة مصر.
- الأصفهاني، أبو الفرج: د.ت، الأغاني، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

- أعراب، حبيب: ٢٠٠١، الحجاج والاستدلال الحجاجي - عناصر استقصاء نظري، عالم الفكر، عدد يوليو، مجلد ٤٠، سبتمبر.
- الأعجم، زياد: ١٩٨٣، شعره، جمعه وحققه د. يوسف حسين بكار، ط ١، دار المسيرة، بيروت.
- التوحيد، أبو حيان، ١٩٣٩، الإمتاع والمؤانسة، صححه وضبطه وشرح غريبه أحمد أمين وأحمد الزين، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة.
- الجاحظ، عمرو بن بحر: ١٩٦١: البيان والتبيين، ط ٢، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، مصر.
- الجرجاني، عبد القاهر: د. ت، دلائل الإعجاز، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحباشة، صابر: ٢٠٠٧، فصل التداولية المدمجة لهرمان باريه ضمن كتاب تلوين الخطاب، الدار المتوسطة للنشر، تونس.
- الدريدي، سامية: ٢٠٠٨، الحجاج في الشعر العربي القديم من الجاهلية إلى القرن الثاني للهجرة، بنيته وأساليبه، ط ١، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
- الدوري، عبد العزيز: ١٩٨٦، الجذور التاريخية للشعوية، ط ٤، دار الطليعة، بيروت.
- الرقبي، رضوان: ٢٠١١، الاستدلال الحجاجي التداولي وآليات اشتغاله، مجلة عالم الفكر، مجلد ٤٠، أكتوبر، ديسمبر.
- السكاكي: ١٩٧٨، مفتاح العلوم، ضبطه وعلق عليه: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، لبنان.
- صمود، حمادي: مقدمة في الخلفية النظرية للمصطلح، ضمن أهم نظريات الحجاج في الثقايد الغربية من أرسطو إلى اليوم، منشورات

- كلية الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، تونس.
- ضيف، شوقي: د.ت، العصر الإسلامي، دار المعارف، مصر.
 - الكفوي، أبو البقاء: ١٩٩٨، الكليات، ط ٢، تحقيق: عدنان درويش ومحمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت.
 - الطلبة، محمد سالم: ٢٠١٠، مفهوم الحجاج عند بيرلمان وتطوره في البلاغة المعاصرة، ضمن كتاب الحجاج مفهومه ومجالاته، دراسات نظرية وتطبيقية في البلاغة الجديدة، ط ١، ج ٢، الحجاج مدارس وأعلام، إعداد وتقديم حافظ إسماعيلي علوي، عالم الكتب الحديث، إربد، الأردن.
 - طروس، محمد: ٢٠٠٥، النظرية الحجاجية من خلال الدراسات البلاغية والمنطقية واللسانية، ط ١، دار الثقافة، الدار البيضاء.
 - طه عبد الرحمن: ١٩٨٨، اللسان والميزان أو التكوثر العقلي، ط ١، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب.
 - العمامي، محمد نجيب: ٢٠٠٩، تحليل الخطاب السردى، وجهة النظر والبعد الحجاجي، ط ١، مسكيلاني للنشر، كلية الآداب والفنون والإنسانيات بمنوبة، وحدة الدراسات السردية، تونس.
 - العمامي، محمد نجيب: ٢٠١١، الذاتية في الخطاب السردى، الإدراك والسجال والحجاج، ط ١، دار محمد علي الحامي للنشر، تونس.
 - العمري، محمد: ١٩٨٦، في بلاغة الخطاب الإقناعي، ط ١، دار الثقافة، الدار البيضاء.
 - العمري، محمد: ١٩٩١، المقام الخطابي والمقام الشعري في الدرس البلاغي، مجلة دراسات سيميائية أدبية لسانية، مطبعة النجاح.
 - القرطاجني، حازم: ١٩٦٦، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تقديم وتحقيق: محمد الحبيب بن الخوجة، دار الكتب الشرقية، تونس.

- المرزباني، معجم الشعراء، ١٩٦٠، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، مطبعة البابي الحلبي، القاهرة.
- ابن منظور الإفريقي: ١٩٩٧، لسان العرب، ط٦، دار صادر، بيروت.
- الولي، محمد: ٢٠٠٥، الاستعارة في محطات يونانية وعربية وغربية، دار منشورات الأمان، الرباط.
- ابن يسار، إسماعيل، ١٩٨٤، شعره وأخباره، د. يوسف حسين بكار، ط١، دار الأندلس، بيروت.

المراجع الأجنبية:

- Cohen, Jean, Le Haut langage, Paris, éd. Flammarion, 1979.
- Aren, Naess, A Necessary component of Logic: Empirical Argumentation Analysis,

* * *